الفصل الأول

الشخصية المصرية والثورة

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

الشخصية المصرية والثورة

تحدث مفكرون مصريون كثيراً عن الشخصية المصرية وأهم السمات التي تتميز بها وقبل أن نعرض هذه السمات التي تميز الشخصية المصرية يجب أن ننوِّه أن هذه السمات بشكل عام لا تعني – بالضرورة – أن كل المصريين يتصفون بها في حياتهم ومواقفهم طول الوقت " فالنمط المثالي كما هو معروف ليس حقيقة إمبريقية (تجريبية) أو قانونا علميّاً ، وإنما هو أداة تحليلية تهدف إلى عزل بعض جوانب الواقع بهدف إبرازها حتى يتسنى إدراكها بوضوح ومعرفة أثرها على الواقع . " (١)

د.زكي نجيب محمود ، وطبيعة الشرق الفنان

يشبه د. زكي نجيب محمود الشرق بالفنان الذي " يدرك العالم بروحه لا بعقله أما الغرب فطابعه الأصيل العميق هو النظر إلى الوجود الخارجي بعقل منطقي تحليلي يقف عند الظواهر مشاهداً لها وهي تطرد وتتابع على هذه الصورة أو تلك فيجعل من هذه الاطرادات في الحدوث قوانين يستخدمها بعدئذ في استغلال الظواهر الطبيعية على النحو الذي يرضيه ولا بد لمثل هذه النظرة من السير في خطوات استدلالية تنتزع النتائج الصحيحة من مقدماتها الصحيحة وتلك هي نظرة العلم وهذه التفرقة التي تجعل من الشرقي فناناً يدرك الحقيقة بذوقه ومن الغربي عالماً يدرك الحقائق بالمشاهدة والتجربة والتحليل والتعليل لا تنفي بطبيعة الحال أن يكون في الشرق علماء ، ولا أن يكون في الغرب رجال دين وفن لكننا نطلق القول على وجه التعميم الواسع الذي يفسر بعض التفسير ما هو شائع على الألسنة من وصف الشرق بالروحانية ووصف الغرب بالمادية . " (٢)

---

(1) محمد عاطف غيث " قاموس علم الاجتماع " .

(2) د. زكي نجيب محمود " الشرق الفنان " ص ٤ الهيئة العامة للكتاب .

فالعربي عامة والمصري خاصة عند د. زكي نجيب محمود تحركه عواطفه وأهوائه لا عقله وعلمه " وماذا ينقص العربي أكثر مما ينقصه من مثل هذه القدرة على التفرقة بين حقائق الدنيا الواقعة من جهة ، وبين انطباعاته هو بتلك الحقائق من جهة أخرى ؟ وليس العيب هو أن يكون للإنسان أهواؤه بالنسبة لمن يصادفه في عالم الأشياء ، فيحب ما يحب ويكره ما يكره ، ولكن العيب كل العيب هو أن نخلط بين الجانبين ذلك الخلط الذي يجيز لنا أن نتحدث عن أوهامنا وأحلامنا، ثم نظن أننا أنما نتحدث عن أمور الواقع . " (١)

د.أحمد عكاشة ، المصري بين عصور الاستعمار والاستحمار

يرى د. أحمد عكاشة الرئيس السابق للجمعية العالمية للطب النفسي أن : " ما يميز الشعب المصري عن باقي شعوب العالم هو الدفء العاطفي، وتقبله لكل المحن بنوع من السخرية وكأن الحياة بالنسبة له فترة انتقالية فقط، فالمصري لديه القدرة على أن يتجاوز ذاته ويعاون الآخر في شهامة، بشرط أن يساعده المناخ العام على ذلك . " (٢)

وعن السلطة في مصر قال د. عكاشة : " قد عشنا في عهد الاحتلال الأجنبي في عصر "استعمار"، وعلى يد أبناء جلدتنا عشنا عصر" الاستحمار"، نظراً لتهميش قيمة رأي الفرد وهذا الأمر يبدأ منذ سنوات الطفولة الأولى .. إن الحاكم لدينا يحاط بمنافقين، فنحن من نصنع الأسطورة ونؤله الحاكم فيما يوصف بأخلاق العبيد ، فالمحيطون بالحاكم أو المسئول يمنعون عنه كل الآراء الصريحة التي قد تحمل نقداً له، فضلاً عن القمع والكبت لكل رأي حقيقي لا يتوافق مع الحاكم." (٣)

د . محمد المهدي ، الثبات النسبي لسمات الشخصية المصرية

أما د. محمد المهدي (٤) فله دراسة قيمة عن الشخصية المصرية (٥) أهم ما جاء فيها هو : إن السمات الأصلية غير القابلة للتحريك التي تميز الشخصية المصرية :

---

(1) د. زكي نجيب محمود " ثقافتنا في مواجهة العصر " دار الشروق ص ١٥٨ .
(2) د. أحمد عكاشة برنامج " أحلام حقيقية " أذيع على قناة المحور الأحد ١٣ / ٢ / ٢٠١١ .
(3) نفسه .
(4) د. محمد المهدي: رئيس قسم الطب النفسي – كلية طب دمياط – جامعة الأزهر عضو مجلس إدارة الجمعية الإسلامية العالمية للطب النفسي مستشار التحرير بمجلة النفس المطمئنة .
(5) د. محمد المهدي " الشخصية المصرية " .

الذكاء ، والتدين ، والطيبة ، والسخرية ، تذوق الفن ، وعشق للاستقرار ، والميل إلى الوداعة والطمأنينة ، والهدوء وطول البال ، والدعابة والمرح ، والتفاؤل ، والوسطية وحب الحياة .

وقد أدى إلى الثبات النسبى لهذه السمات ارتباطها بعوامل جغرافية ومناخية مستقرة نسبيّاً .

وقد حدثت تحولات نوعية في بعض السمات وتحولات نسبية في سمات أخرى ، فمثلاً استخدم البعض ذكاءه في الفهلوة ، وتعددت صور التدين بعضها أصيل وبعضها غير ذلك ، وقلت درجة الطيبة وحل محلها بعض الميول العنيفة أو العدوانية الظاهرة أو الخفية ، وتأثر الجانب الفني في الشخصية تحت ضغط التلوث والعشوائيات ، وزادت حدة السخرية وأصبحت لاذعة قاسية أكثر من ذي قبل وأحياناً متحدية فجة جارحة ، أما عشق المصري للاستقرار فقد اهتز كثيراً بعدما أصبحت البيئة المصرية طاردة نحو الخارج بحيث أصبح حلم كثير من الشباب السفر إلى أي مكان لتحقيق أهدافه بعد أن أصبح متعذراً تحقيق الآمال والأحلام على أرض الوطن.

وشعور المصري الزائد بالطمأنينة والسكينة وصل به في بعض الأحيان إلى حالة من الكسل والتواكل والسلبية والتسليم للأمر الواقع ، والميل إلى الاستقرار الذي يصل أحياناً إلى حالة من الجمود .

فالشخصية المصرية مثل الطبيعة المصرية لا تتغير بسهولة ولا تتغير بسرعة ، بل تميل إلى الاستقرار والوداعة والمهادنة وتثبيت الوضع القائم كلما أمكن والتصادق معه وقبوله .

وهذه الصفات قد خدمت إلى حد كبير كل من حكموا مصر على مدار التاريخ حيث كان ميل المصري للوداعة والطمأنينة والاستقرار يفوق ميله للثورة والتغيير ، وربما يكمن هذا العامل وراء الحالة المزمنة من الحكم الاستبدادي على مدار التاريخ المصري ، فقد كان الحاكم يبدأ بسيطاً متواضعا ثم بطول المدة واستقرار الأوضاع تتمدد ذاته على أرض الوادي الخصيب وسط أناس طيبين مسالمين وادعين ، وشيئا

فشيئاً تتوحش هذه الذات الحاكمة وتحكم قبضتها على رقاب الشعب، والحاكم يعرف دائماً أن الشعب المصري لا يميل إلى الثورة خاصة في أشكالها العنيفة .

فخلو الطبيعة المصرية – نسبيّاً – من الزلازل والبراكين والنوّات والأعاصير الجارفة يقابله ميل شعبي لاستمرار الاستقرار واستقرار الاستمرار ، وهذا شعار يرفعه كل حاكم استبد بحكم مصر واستغل هذه الرغبة الدفينة لدى المصريين في الاستقرار والوداعة وراحة البال .

وحين كانت تشتد بهم الخطوب نتيجة عسف الحاكم الأجنبي المستبد والمستغل كانوا يستعينون بالنكات اللاذعة والسخرية لتخفيف إحساسهم بالمرارة مما يعانون ، وكان سلاح السخرية يؤجل الثورة وربما يجهضها لأنه يعمل على تنفيث الغضب الكامن. (١)

د. نعمات أحمد فؤاد ، والسمات السلبية للشخصية المصرية

لقد رصدت د. نعمات أحمد فؤاد السمات السلبية للشخصية المصرية فوجدت أن أهم ما يميزها :

١– **الفردية المتضخمة المريضة** . إن الشخصية وعي بالقيمة أما الفردية فوعي بالذات والوطنية ليست أخذاً بل التزاماً بالإضافة الخلاقة إلى رصيد الوطن من القيم

٢– **السلبية** ، فالمواطن المصري يلذ له أن يحترف النقد والثلب كأنه خُلِق كاملاً. إن الذي يرى عيوب الناس دون عيوبه إنما هو في الحقيقة يرى عيوبه مكبرة ، كبَّرها هو ليستريح حين يقنع نفسه أنه الأفضل .

٣– **سوء فهم التقدم والتخلف** حين يحصرهما في الوسائل والموضة . إن التقدم يقاس بأن المجتمع إذا غاب فيه فرد لا يملأ مكانه أحد ، والتخلف أن يعدم الإنسان المسئولية ، ويسلم أو يطلب التبعية ، أن يسلم الإنسان نفسه لإنسان مثله يطعمه ويسقيه ثم يدفنه في النهاية ، فرد في قطيع وراء الراعي .

٤– **التواكل أو الاتكالية** نقول " إن شاء الله " ونعني في قرارة نفوسنا التخفف من العمل المقصود .

([1]) د. محمد المهدي " الشخصية المصرية " مرجع سابق .

obeikandl.com

٥- **فقير النفس** : كثير من بيوتنا مفروشة ونفوس أهلها خالية خاوية مهجورة لم تفرش لم تعمر بالقيم الحقيقية .

٦- **الفخر بأنفسنا** إلى حد الطنطنة أو التهوين من أنفسنا إلى حد فقدان الثقة ، وفي الحالين تهتز الرؤية ويضطرب الحكم الصحيح على الأشياء .

٧- **لا نثق في ديمقراطية الحكم** لأن الديمقراطية أساسها ثقة الفرد بنفسه وبكيانه وبحقه ، وقد أُمِيْتَتْ هذه المعاني في نفس الإنسان المصري . وليس من السهل أن تطلب من المطحونين بين يوم وليلة أن يفهموا هذه المعاني ؛ فتطلع الكثيرون إلى الآخرة تهرباً من الدنيا .

٨- **الكسب بأي وسيلة** مشروعة كانت أو وغير مشروعة ، ما دامت المسألة غلاباً فلا توازن بين الفرص وإنما الغرض هو الوصول من أقصر الطرق ، والنتيجة الحتمية لذلك إيجاد نظام الطبقات تحت أسماء مختلفة ، إيجاد طبقة غالبة وطبقة مغلوبة ، والأثر الطبيعي لهذا كله أن تنقطع الصلة بين طبقات المجتمع وتتلوث الحالة النفسية للشعب فلا ثقة نفسية تقرب بعضه إلى بعض أو تشيع فيه التعاطف النفسي فيتدافع إلى شيء من تواد أو تراحم يخفف من حدة غرائز التملك والاقتناء والسيطرة السائدة فيه .

٩- **الطابع الغيبي في التفكير** والذي يتمثل في قولهم عقب كل شيء .. هكذا أراد الله . فالحيرة والقلق النفسي ينتهي إلى التفويض والتسليم بقضاء الله .

١٠- **الحزن الشديد عن الموت** والإتيان بما لا يفعله شعب آخر من الشعوب . الحياة كلمة غامضة مبهمة وكذلك الموت . (١)

الخضوع أمام السلطة وزيادة العنف البيني

ويفسر د. محمد المهدي ظاهرة انتشار العنف بين المصريين بقهر الحكام لهم فعندما يشعر المصري بتسلط من هو فوقه يحاول أن يمارس التسلط على من هو دونه : " والخضوع أمام السلطة يقابله زيادة في العنف البيني أو التحتي وإزاحة العدوان ، فهذا المصري الذي يخضع لسيده ، بل وينسحق أحياناً تحت قدميه ، نراه

(1) انظر شخصية مصر د. نعمات أحمد فؤاد الهيئة المصرية للكتاب من ٢٧٩- ٢٨٥ .

يمارس عنفاً مباشراً أو غير مباشر مع من حوله من زملائه أو جيرانه أو من يقصدونه لقضاء مصالحهم (إن كان موظفاً) ، وفى البيت نجده يمارس العنف ضد زوجته وضد أولاده , وكأنه يعمل على إزاحة عدوانه من السيد الذي يقهره ولا يقدر عليه (أو لا يريد أن يكلف نفسه عناء مقاومته) إلى أناس آخرين يجد في نفسه القدرة عليهم ، وهذا يحيل الحياة المصرية المعاصرة إلى حالة من العدوان الظاهر (السباب والمشاجرات في الشارع والسوق ، والاعتداء اللفظي والجسدي على الزوجات والأبناء) ، والعدوان السلبي : اللامبالاة والكسل والتراخي وتعطيل المصالح والمكايدة والتجاهل . " [١]

الشخصية المصرية وأنيميا الغضب الإيجابي

علماء النفس والاجتماع رصدوا حالة الثراء في مشاعر المصري، سواء في الفرح أو الحزن أو الغيرة، أو الغضب البيني، إلا فيما يتعلق بمشاعر الغضب العام، فهناك شعوب عندما تنتهك كرامتها أو تهدد لقمة عيشها تغضب، ويحصل غضب توافقي يبعث على الإصلاح والتغيير .

المصريون لا يملكون هذا الغضب العام، كأنهم مصابون بأنيميا الغضب، والمقصود بالغضب العام الغضب الإيجابي الذي لوحظ في دول مثل إيران، عندما حدث نوع من الشك في نزاهة الانتخابات الرئاسية الأخيرة، ماذا حدث في الشارع الإيراني.. سنة كاملة من الغضب، الأمر نفسه حدث في باكستان ورومانيا وفى تشيكوسلوفاكيا وأوكرانيا .

الغضب العام يؤدى إلى تغيير، ولكن المجتمع المصري للأسف الشديد ليس لديه مشاعر الغضب العام ، يغضب داخل أسرته أو مع أصدقائه وجيرانه، ولكنه لا يغضب لانتهاك قيم مثل العدل، والمساواة والمواطنة، أو تزوير الانتخابات . [٢]

([1]) د. محمد المهدي " الشخصية المصرية " .

([2]) من حوار موقع "أون إسلام" مع د. محمد مهدي بتاريخ ١٢ يناير ٢٠١١ .

obeikandl.com

د. جمال حمدان ، وآفة مصر

يقول د. جمال حمدان " آفة مصر ابتداءً اثنتان : الطغاة في الداخل ، والاستعمار من الخارج . هاتان هما نقطتا الضعف الأساسيتان في شخصية مصر.. فنحن كشعب نخضع بانتظام لحكامنا الطغاة ، وحكامنا يركعون بسهولة للأجانب الغزاة ومن جانبنا كمواطنين فلقد درجنا تقليدياً على أن نبرئ ساحتنا كشعب من مسئولية هذا الوقر المزدوج القاصم لظهورنا بمقولة أننا ببساطة شعب مغلوب على أمره مفترى عليه وأن الفاعل هو الطغيان والمجرم الأكبر هو الاستعمار ومن جانبه فإن الطغيان الداخلي بدوره يزيح المسئولية عن كاهله مسارعاً بكل ترحيب بإلقائها على عاتق الاستعمار الآثم الزنيم . " (١)

أصل الطغيان الفرعوني والاستبداد الشرقي

وفي موضع آخر من كتابه شخصية مصر يقول جمال حمدان عن الشخصية المصرية : " سلبية المواطن الفرد إزاء الحكم جعلت الحكومة هي كل شيء في مصر والمواطن نفسه لا شيء ، فكانت مصر دائماً هي حاكمها . وهذا أس وأصل الطغيان الفرعوني والاستبداد الشرقي المزمن حتى اليوم أكثر مما هو نتيجة له . فهو يفرط الاعتدال مواطن سلس ذلول ، بل رعية ومطية لينة ، لا يحسن إلا الرضوخ للحكم والحاكم ، ولا يجيد سوى نفاق السلطة والعبودية للقوة ، وما أسهل حينئذ أن يتحول من مواطن ذلول إلى عبد ذليل . "

سانت هيلر ، كيف كُتِبَ على المصريين العبودية ؟

وهناك من يقول بأن النيل (أو المجتمع النهري) هو أحد العوامل الكامنة خلف الطغيان في المجتمع المصري وليس كلها ، وقد قال في هذا المعنى بارتملى سانت هيلر : " منذ الفراعنة كتبت على سكان مصر العبودية السياسية ، وإني أبعد ما أكون عن القول بأن النيل هو السبب الوحيد لهذا الوضع المحزن ، وإني لمدرك أن ثمة كثيراً من الناس أكثر عبودية وبؤساً دون أن يكون لديهم نيل . كل ما أود أن أقوله هو

(١) جمال حمدان " شخصية مصر " ج٢ / ص ٥٩٥ دار الهلال .

obeikandl.com

أن النظام الطبيعي لهذا النهر العظيم كان في مصر أحد أسباب الطغيان ، لقد وجد الطغيان فيه نوعاً من الضرورة ، وكذلك حجة وذريعة خاصة . "

يقول د. محمد المهدي تعليقاً على كلام سانت هيلر : " وهذا الموقف ترك لدى الشخصية المصرية مجموعة من أخلاق العبيد مثل المداهنة والمسايرة والخضوع والتسليم للسيد أيا كان هذا السيد (رئيساً في العمل أو زوجاً أو حاكماً) . ويبدوا أن المصريين من كثرة ما تعرضوا للاستعمار والاستبداد تعودوا أن يتعاملوا على أنهم رعايا لا مواطنين ، فهم يكتفون ويرضون بلقمة العيش والوظيفة – أيا كانت – ولا يطمحون لحقوق المواطنة والكرامة والسيادة إلا في المواقف التي يستفز فيها المستعمر الخارجي الكرامة الوطنية إلى درجة جارحة ، هنا ينتفض المصريين لدفع هذا الاستعمار ثم ما يلبثوا أن يعودوا لسابق عهدهم الذي وصفناه . " (١)

وبعد أن استعرضنا أهم سمات الشخصية المصرية في كتابات أشهر من تحدث عنها سوف نقوم باستعراض التاريخ المصري لنبحث عن سمات الشخصية المصرية خاصة تجاه حكامها المحليين ، والأجانب ، ونناقش الأقوال التي وسم بها الكتاب الشخصية المصرية بأنها شخصية خانعة خاضعة لحكامها ، وأنها شخصية غير ثورية ، وعندها أنيميا في الغضب الإيجابي ، كما أنها تقبل الضيم والذل من أجل الاستقرار والأمن ، وتتكيف مع كل وضع وإن كان مهيناً ، وأن سلاحها الوحيد الذي تواجه به طغاتها هو السخرية وإطلاق النكات ، والزهد في الدنيا وطلب الآخرة .

***

(1) د. محمد المهدي " الشخصية المصرية " .

obeikandl.com